٩- الموروث الثقافي

لقد تجلت عظمة التراث اليمني بالحفاظ على طابعه المتميز الذي صمدت معالمه متحديـة عوامـل الطبيعة المختلفة، من تعرية وتجوية وغيرها، ولقد كانت التقنيات والأساليب التي اتبعها أجدادنا القدماء شاهداً حياً وبارزاً في كل مكان بدءاً بإنشاء المدرجات الزراعية والطرق المختلفة في اتباع وابتكار الطرق الهندسية الدقيقة في نقل وحصاد المياه وانتهاء بابتكار طرق وأنماط البناء التقليدية التي كانت متبعة في المدن والقرى وغيرها، والتي كانت دقيقة من حيث استغلالها لحيز المساحة، ولا تؤثر على الأرض الزراعية. فقـد بنيـت القرى والتجمعات السكانية على منحدرات الجبال الصعبة في قمم الجبال، واستخدمت المواد المحلية في بناء المساكن وتعددت أنواعها وأشكالها متناسبة مع طبيعة المكان والطقس، وذلك ما نشاهده من اختلاف تصاميم المباني في رؤوس الجبال وبطون الأودية عنها في مناطق الساحل الحار كل بحسب ملاءمته وكفاءته، فقـد كان للأجداد دور مهم وبارز في حفاظهم على البيئة والتفاعل معها لتوفير سبل عيش افضل. فقد أمن النـاس احتياجاتهم الأساسية في ظل توازن وعدم إخلال بمكونات البيئة الطبيعية، فظهرت في العصور القديمة الكثير من الأعراف والتشريعات المختلفة في مجال حفظ وتوزيع المياة وقطع الأشجار والري وغيرها، وقد سـبق أجدادنا بذلك كافة شعوب الدنيا ولا زال الكثير منها معمولاً به حتى اليوم.

وقد تزايد الاهتمام في الوقت الحاضر بترميم وصيانة العديد من المدن التاريخية والمنشـآت مثـل ترميم مدينة صنعاء القديمة، ومدينة شبام، وإعادة أسوار العديد من الحصون التاريخية، فالحفاظ على التراث هو حفاظ على أحد أهم الميزات التاريخية في الحفاظ على البيئة، ففـي الوقـت الحاضـر تتعـرض تلـك الموروثات للتخريب نتيجة للإهمال ومتطلبات المدينة، وازدياد السكان، وهذا ما يلاحظ بوضوح في فتـرات السبعينيات وبداية الثمانينات حيث ازدادت معدلات الهجرة وتركت الأرض بوراً، وانهارت مساحات واسـعة من المدرجات الزراعية مما تبعه انجراف التربة وتعريتها بالإضافة إلى إهمال مجاري السيول في الأودية، والتي أدت إلى النتيجة نفسها.

كما ان هناك العديد من الطرق والتقنيات التقليدية القديمة التي كانت تستخدم في نقل الميـاه، مثـل ساقية جامع الجند التي كانت تنقل المياه من جبل التعكر في محافظة اب الى جامع الجند في محافظة تعـز و لازالت أثارها ونظامها الفريد قائما وشاهداً على الحضارة التليدة حتى اليوم .

وفي نفس المجال أدرك الأجداد أن نقل المياه عبر القنوات المبطنة المكشوفة يفقدها كميات كبيـرة من المياه بالإضافة إلى تعرضها للتلوث، فقد عمد اليمنيون إلى ابتكار طرق فريدة من نوعها في نقل الميـاه عبر قنوات مبطنة غير مكشوفة، ومن هذه الأنظمة قناة شبام كوكبان التي تعرضت للدفن فـي العديـد مـن أجزائها والتي لازالت تعمل بكفاءة متميزة، وقناة يفرس، والقناة المغلقة في مدينة تعز، ونظام المعابين فـي حضرموت، ففي السنوات الأخيرة مع تنامي الوعي البيئي وإدراك القيادة السياسية لأهميـة الحفـاظ علـى الموروث الثقافي عمدت الدولة ممثلة بمجلس حماية البيئة وغيرها من المؤسسات إلى إصـدار التشـريعات والقوانين التي تحمي الموروث الثقافي، كان أخرها مشروع قانون السياحة البيئية الذي يهدف إلـى حمايـة عناصر ومقومات السياحة البيئية الطبيعية والثقافية، وضمان الاستغلال المستدام لهذه العناصـر، ومكافحـة التلوث بأشكاله المختلفة، وتجنب أثاره السلبية، والحفاظ على الموروث الثقافي الطبيعي .فقد حضر مشـروع القانون حضراً تاماً تدمير وتخريب الآثار في مناطق جذب السياحة البيئية، كمـا حضـر البنـاء الحـديث واستخدام المواد غير المتجانسة مع الطراز المعماري التاريخي، وإقامة الورش والمصـانع بالإضـافة إلـى حضر التلوث ورمي القمامات والنفايات والمخلفات.

ولعل من خواص التراث الثقافي في اليمن تلك العلاقة الباقية والواضحة بـين بعـض المخلفـات الأثرية وجهود الإنسان في العناية بالبيئة والتعامل معها لتوفير أسباب العيش لـه. إن الأحـداث السياسـية والتغيرات الاقتصادية المختلفة التي شهدتها البلاد في العقود القليلة الماضية أدت الى إهمال العنايـة بـالكثير من منشآت الري في الأودية. ولم يكن صدفة ان أخر ترميم للعرم (الجزء الأساسي في سد مأرب) المعرض

بسبب طبيعة مادته للانهيار بين حين وآخر بفعل السيول غير العادية كان على يد أبرهه المدعو يمنياً والمتخذ لقب التبابعه المعروف. وكان ذلك عام ٥٤٢ ميلادية كما يفهم ذلك من نقش أبرهه ونقش شرحبيل يعفر.

وحتى في حالة سد مأرب الجديد فان العلا قه بين الحفاظ على التراث والحفاظ على البيئة لا تحتاج الى بيان، فالعمارة الطينية والحفاظ على التراث لا يعني تحنيطه وإنما تطويره ليواصل عطاءه ومـن عـادة الناس ومتطلبات الحضارة ان يطور الناس تقنياتهم، وهذا ما حدث في مجال البناء بالمـدر المجفـف فـي الشمس في حضرموت، حيث طور الإنسان اليمني البناء الطيني، فالمنازل الطينية القديمة متعددة الطبقات في وادي حضرموت تعود الى قرون كثيرة قبل الميلاد. كما استدل من أعمال تنقيب أثري في الوادي انها كانت تقوى جدرانها خلال فتره طويلة امتدت حتى القرن الثالث الميلادي على الأقل باستخدام هياكل خشبية حتـى تربط جدران المدر بعضها ببعض. حتى بلغت المنازل طبقات كما في واجهة مدينة شبام وربما في دوعـن أيضاً، وكما في منارة المحضار، وكان يعد عملهم الرائع هذا نوعاً من أنواع الحفاظ علـى البيئـة وعلـى التراث في أن واحد. ويلاحظ ان السيول الأخيرة عام ١٩٨٩م أدت الى تدهور عدد من المباني خارج مدينـة شبام - حضرموت الأثرية، بينما بقيت مبانيها صامدة. ويجب ان نشير هنا إلى الدور العالمي الذي يقوم حالياً بالحفاظ على الموروث الثقافي والفني، وخصوصا الخطة العالمية لليونسكو، ومن ضمنها إدخال مدينة صنعاء ومدينة زبيد ومدينة شبام من ضمن المناطق العالمية التي يجب الحفاظ عليها والمعلنة ضمن الموروث الثقافي العالمي، كما نتطلع إلى أن تكون هناك صورة عن المدن اليمنية الأخرى ذات التراث ضـمن المـوروث الثقافي العالمي مثل(جبلة و كوكبان و ثلاء و قلعة القاهرة وشهاره).